wadod.org

مجلة فصلية محكمة

تعنى بالآثار والتراث والمخطوطات والوثائق

عدد خاص عن الغرب الإسلامي ـ الإصدار الأول

في هذا العدد:

- جوانب من تاريخ الأشراف بالمغرب وتحقيق أنسابهم ..... د. خالد بن أحمد الصقلي
- مسالك التأليف في فقه النوازل بالمغرب الإسلامي..... د. مصطفى الصمدي
- دراسة تحليلية في رسائل فضائل أهل الأندلس..... د. هدى شوكت بهنام
- ابن ملكون النحوي، من خلال مخطوط (إيضاح المنهج)..... أ. محمد الجيري
- من شعراء الغزل في الأندلس..... د. قدام سعيدة
- فضائل أهل الأندلس ــ نصّان جديدان..... د. محمود خياري
- شعر أبي علي بن كسى المالقي (ت٦٠٣ أو ٦٠٤)..... د. سليمان القرشي
- المقري التلمساني والتواصل بين المغرب والمشرق..... أ. د. ابتسام مرهون الصفار
- مالك بن المرحل ــ حياته وشعره..... أ. نجيب الجباري
- المؤلفات الأندلسية والمغربية في الرد على ابن حزم الظاهري..... د. سمير القدوري
- تفسير مكي بن أبي طالب القيسي..... أ. عبد اللطيف دهاج
- ورقات عن حضارة المرينيين..... أ.د. بدري محمد فهد
- ملاحظات وتعقيبات على تحقيق كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء

..... د. محمد الحافظ الروسي

- إصدارات ..... أ. حسن عريبي الخالدي

المجلد الحادي عشر والثاني عشر ـ السنة الثالثة ـ صيف ـ خريف ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م

wadod.org

المَقرِّي التلمساني

والتواصل بين المغرب والمشرق

الأستاذة الدكتورة ابتسام مرهون الصفار(*)

الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد المَقرِّي التلمساني عالم جزائري صاحب الكتاب المشهور بنفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أديب وشاعر ومؤلف كانت له ولعائلته مكانة كبيرة في بلدة تلمسان وفي أي بلدة حلها في فاس ومراكش في المغرب، ثم بلدان المشرق العربي حيث سياحاته العلمية.

كان المَقرِّي بحق علماً متنقلاً يلتف حوله طالبو العلم فينتهلون من علمه ولا يبخل عليهم، ويلتقي بالعلماء فيجتني منهم أخذ ما فاته فيضيفه إلى معارفه.

إن دراسة حياة هذا الرجل الفذ تطلعنا على نشاط فكري كبير، وهمة عالية، وغاية سامية ترى أن الأمة العربية والإسلامية واحدة، وأن العلم ليس حكراً على بلد دون آخر، فالحكمة ضالة المؤمن، والعالم الحق هو من يجعل العلم وكده، ولا يتعالى عن طلبه مهما بلغ من المكانة والسن.

من هنا نستطيع القول: إن نتاج المَقرِّي التلمساني يحمل سمات رسالة علماء السلف السامية وهي التواصل بين المغرب والمشرق لأخذ العلم ونشره. وقد تابعنا هذا التواصل من خلال ما كتبه عن:

١ ـ رحلاته في المغرب والمشرق العربي.

٢ ـ رحلات الأندلسيين إلى المشرق العربي.

٣ ـ رحلات المشارقة إلى الأندلس.

لقد عرَّف المَقرِّي نفسه بأنه أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمَقرِّي المغربي المالكي الأشعري التلمساني[١].

---

* أستاذة في كلية الآداب ـ بجامعة مؤتة ـ الأردن.

(١) نفح الطيب ١/ ١٣، البحث ألقي في جامعة آل البيت في المملكة الأردنية في الملتقى العلمي حول الحركة الثقافية والإبداعية في الجزائر في ٧ / أيار ٢٠٠١/ ١٤ صفر ١٤٢٢.

wadod.org

أما المَقرّي فنسبه إلى بلدة مقرة وقد اختلف في ضبطها:

١ ـ فتح الميم وإسكان القاف مَقْرة[١].

٢ ـ فتح الميم والقاف مشددة[٢] مَقّرة.

ويبدو ضبط الثاني هو الأرجح وقد ذكره المَقرّي في مطلع أرجوزة له يقول:

أحمد الفقير المَقرّي المغربي المالكي الأشعري[٣]

وقد ذكر أنها مدينة لها حصون كثيرة، والمدينة العظمى مقرة أهلها قوم من بني ضبة وبها قوم من العجم وحولها قوم من البربر[٤]. ووصفها ياقوت بأنها مدينة في المغرب قريبة من قلعة بني حماد بينها وبين طبنة ثمانية فراسخ، وكانت لها مسلحة للسلطان ضابط للطريق ينسب إليها عبد الله بن محمد المقري[٥].

وأما تلمْسان:

فقد نص المقري على أنها موطنه ولادة، ونشأة بقوله في مقدمة نفح الطيب يقول... أحمد بن محمد الشهير بالمَقرّي. التلمساني المولد والنشأة والقراءة[٦].

ويقول أيضاً عنها (وبها ولدت أنا وأبي وجدي، وجد جدي، وقرأت ونشأت إلى أن ارتحلت عنها في زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف[٧]).

ويقول أيضاً كونها مسرح طفولته، أخذه العلم فيها (وتلمسان هذه هي مدينتنا التي علقت بها التمائم، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمن بن أبي بكر المقري بن علي صاحب الشيخ أبي مدين الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين.. وهي من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء حسبما قال ابن مرزوق:

يكفيك منها ماؤها وهواؤها

وحين ذكر ترجمة الشيخ شعيب قال عنه: إنه شيخ حبره، وأنه يحس بأنه في بركة دعائه نقلاً عن جده الذي قال بان الشيخ دعا له ولذريته بما ظهر قبوله.

تلقى المقري العلم في خراسان، وتلقى القرآن وحفظه، ولازم حلقات العلماء من تلمسان التي كانت في ذلك العصر مركزاً عظيماً للدراسات الدينية.

---

(١) معجم البلدان ـ ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت مادة مقرة.

(٢) انظر تفصيل الآراء في المقري وكتابه نفح الطيب، المقري، تحقيق إحسان عباس ـ دار مكتبة الحياة، بيروت ـ ص١٠٩ ـ ١١٤.

(٣) مقدمة روضة الآس للمقري تحقيق ح. محمد بني عبد الكريم ـ دار مكتبة الحياة، بيروت.

(٤) البلدان، اليعقوبي، تحقيق هنري بيرس. المطبعة الرسمية. الجزائر ١٩٦٠، ١١، وانظر المقري وكتابه نفح الطيب ١٠٦.

(٥) معجم البلدان مادة (مقرة).

(٦) نفح الطيب ١/ ١٣.

(٧) نفسه ٩/ ٣٤٢.

wadod.org

ويبدو أن أباه محمداً كان محباً للعلم، وآخذاً منه بسبيل، بدليل صحبته لأبنه إلى فاس ـ وإن كان من أسباب الرحلة سبب تجاري ـ فقد وصفه ابن القاضي في إجازته للمقري وصف والده بالأجل الأكمل أبي عبد الله سيدي محمد المقري القرشي[١].

وجاء في كتاب الإجازة التي كتبها أحمد بابا التنبكتي لأبي العباس المقري ذكر أبيه ووصفه بالإمام الأكبر والعالم الأشهر (لما يسر الله تعالى لي ملاقاة السيد الفقيه المتفنن اللبيب المحصل الحافظ أحمد بن محمد المقري من ذرية الإمام الأكبر والعالم الأشهر أبي عبد الله المقري التلمساني نفعنا الله ببركاته)[٢].

ومن أهم العلماء الذين أخذ عنهم أبو العباس المقري العلم في تلمسان عمه أبو سعيد المقري الذي كان مفتي تلمسان، وكبير مشيختها. أفتى بتلمسان أكثر من ستين سنة، وكان من جملة ما قرأ عليه صحيح البخاري، ذكر أنه قرأه عليه سبع مرات، وروى عنه الكتب الستة[٣]:

وقد أخذت جامع البخاري عن عمي الإمام ذي الفخار
المقري سعيد الإمام عن محمد يدعى خروفاً حين عن[٤]

وقد حبب عمه إليه الرحلة إلى فاس ليستزيد من العلم أسوة بجده محمد الذي صحب السلطان أبا عنان حين بويع له بتلمسان فصحبه إلى فاس[٥].

ووصف المقري عمه بأنه من أولئك الأعلام الذين ورثوا العلم عن غير كلالة، وعمروا ربوع المجد، وتفيؤوا ظلاله[٦].

وقد حدث المقري نفسه عن عمه هذا، وأنه حدثه أن بعض شيوخه من أهل تلمسان كان يطالع الكراس الكبير بسرعة فيحفظ ما فيه من وقته[٧] ونقل عن عمه أيضاً إضافات وتعليقات في كتابه إتحاف المغرم المغرى شرح الصغرى[٨].

كما نقل عنه خبراً يذكر فيه أن الوادي أشي نسخ من توضيح خليل نحو العشرين نسخة،

---

(١) روضة الآس العاطرة الأنفاس فيمن ذكر من لقيتهم من أعلام الحضرتين مراكش وفاس. تصحيح عبد الوهاب بني منصور، الرباط، المطبعة الملكية ١٩٦٠، ص ٢٩٥.

(٢) روضة الآس ٣٠٦، وقد رفض د. محمد بن عبد الكريم وصف والد المقري بالعلم والدراية على ما جاء وصفه عند حسين مؤنس في مجلة العربي ٣/٥٢ لسنة ١٩٦٣ ص٤٥ ـ٥١ لأنه يرى أن الرجل لم تكن له مكانة في العلم.

(٣) نفسه المقدمة ط وقد ذكر أنه أخذها عنه بسنده المتصل بأسانيد القاضي عياض، وانظر المقري صاحب نفح الطيب ٣٤.

(٤) نفح الطيب ٣/ ١٨٥.

(٥) روضة الآس.

(٦) أزهار الرياض ١/ ١٠.

(٧) المقري ـ الحبيب. تونس. مطبعة النهضة ١٩٥٧، الجنحاني ص ٦٠ عن فتح المتعال ٢١٣.

(٨) عن مقدمة الحاشية ضمن مجموع بخزينة جامع الزيتونة رقم ٢١٣٠ وقد ذكرته ألفه في فاس عشرة أيام عام ١٠٢٠ وفي سنة ١٠٢٨هـ أضاف إليه ما أغفله في كتابته الأولى عن المقري للجنحاني ص ٩١.

wadod.org

وأنه كان يحترف بالنسخ[١].

ارتحل المقري عن تلمسان إلى فاس بصحبة أبيه عام ١٠٠٩هـ وعمره ثلاث وعشرون سنة، وقد حمل من العلم ما يؤهله للاستفادة والإفادة. نفهم هذا من جملة أخبار:

- ذكر في ترجمة الشيخ ابن القاضي أنه حين حل بفاس أول رحلة له لم يجده، لأنه كان غائباً في (سلا) لكونه حينئذٍ يتولى خطة القضاء بها فلما قدم الشيخ، وعلم به كتب إليه يستدعيه[٢]. ومثل هذا الاستدعاء لا يتم إلا حين يبلغ الوافد من العلم درجة يشيع فيها ذكره فيبعث إليه عالم وقاضٍ يستزيره ويطلبه.

- وكانت للمقري في فاس محاورات علمية أثبت فيها رسوخاً في العلم، وسعة فكر أعجبت الفاسيين، فكتب أحدهم وهو المؤرخ أبو العباس ابن القاضي إلى عمه في تلمسان يشكره على إتحاف أهل فاس بهذه الدرة الفريدة وجاء في الرسالة:

أرسلت للمغرب القصي بدرة ... قد أبهرت وغلت له الأسوام
جمع العلوم على حداثة سنه ... قد بارك الله به العلام
أكرم به من عالم علامة ... جمع العلا وزكت به الأفهام
فجزيت خيراً با سعيد عن الورى ... بابن الأخ العلامة الصمصام

ويصرخ في هذه الأبيات بشكره لأبي سعيد لأنه أخذ العلم عنه وأدبه وعلمه بقوله:

أدبته، هذبته علمته ... ما إن يقاس بعلمه بهرام[٣]

وقد ألف المقري كتاب أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض تلبية لرسائل بعثها إليه أهل مدينته تلمسان يطلبون منه أن يؤلف في القاضي عياض، مما يدل على استمرار العلاقة الثقافية بينه وبين معارفه وأقربائه في تلمسان[٤].

ولم ينس المقري مدينته - وهو يعيش مكرماً في فاس - وكان يصور ما تثيره رسائل أحبائه من تلمسان من تأجيج لواعج الشوق إلى مدينته... ثم يشير إلى حزنه لتعذر مواصلة أهله هناك، فرسائلهم تصل إليه، ويحزنه ما حل بهم دون أن يشير إلى ما حدث لأهله وخلانه، فأي فاجعة حلت بهم؟ ولا نفهم سبب تعذر عودته إلى فاس حين يقول:

جرى بعضهم ذات اليمين وبعضهم ... شمالاً وقلبي بينهم متوزع
فوالله ما أدري بليل وقد مضت ... حمولهم أي الفريقين أتبع

ويقول أيضاً:

روعت بالبين حتى ما أراع به ... وبالمصائب في أهلي وجيراني

---

(١) أزهار الرياض ١/٣٠٨.
(٢) روضة الآس ٢٦٢.
(٣) روضة الآس ٢٧٠، والمقدمة صفحة ١.
(٤) المقري - الجنحاني ص ٨٠.

wadod.org

ما يترك الدهر لي علقاً أضن به إلا رماه بفقد أو بهجران

ويتمثل بقول أحدهم (وهو ابن مرزوق):

بلاد الجزائر ما أمر نواها كلف الفؤاد بحبها وهواها

يا عاذلي في حبها عاذري يكفيك منها ماؤها وهواؤها[١]

ولم يترك المقري فرصة تسنح له بذكر تلمسان إلا وجعلها حاضرة أمام القارىء بمكانتها العلمية، فحين تحدث عن لسان الدين ابن الخطيب ذكر أول لقائه بسلطان بني مرين في تلمسان الذي كان من أهل العلم والعدل والإحسان فاهتز لمقدمه، وأكرم مثواه، وحين توفى السلطان رجع لسان الدين إلى فاس[٢].

وإذا كان المقري قد ارتحل من تلمسان إلى فاس ١٠٠٩هـ ومنها إلى مراكش في السنة ثم عاد إلى تلمسان ١٠١٠هـ فإنه بدأ بتأليف كتابه روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس[٣] الذي وجد فيه المحقق ما يؤكد كتابته أول مرة في تلمسان، وأنه حمل مسوداته مع ما حمله من كتب إلى فاس، حيث لم يستطع أن يضيف إليه فصولاً أو مباحث جديدة[٤].

وعاد مرة أخرى إلى فاس ١٠١٣هـ[٥] ولم ينس وهو في فاس مدينته تلمسان، بل كان يروي عن علمائها وشعرائها، فقد حضر أول زيارته لهذه المدينة أحد المجالس العلمية فسمع عن أحد الشيوخ المحاضرين قضية فقهية فأبدى رأيه فيها، وحين سئل عن دليله وحجته أنشده أبياتاً من الشعر لأبي إسحاق التلمساني نظم فيها هذه القضية، وأجابه الشيخ المحاضر بأن رأيه هو الصواب[٦].

وقد كان في مدينة فاس آنذاك قبيلة شراقة ذات الصلة القوية، بالسلطان السعدي، وهي قبيلة من عرب بادية تلمسان كان لها قوة وحضور في السلطان، وكانت علاقة المقري بها قوية، ولعل هذه العلاقة أحد أسباب ارتباطه بالمدينة، كما كانت فيما بعد أحد أسباب هجرته إلى المشرق[٧].

وفي روضة الآس ذكر المقري من أجازه من العلماء فكان في مقدمتهم ابن القاضي المكناسي الذي أجاز رواية موطأ مالك بأسانيده إلى يحيى بن يحيى الليثي كما أجازه صحيح

(١) أزهار الرياض ١/ ١١، وانظر المقري الجنحاني ص ٣٦.
(٢) نفح الطيب ١/ ٧٩.
(٣) المقري محمد بن عبد الكريم ص ١٥٦.
(٤) روضة الآس ـ المقدمة ص ٢.
(٥) المقري محمد بن عبد الكريم ص ١٥٩.
(٦) روضة الآس ٣٣٤.
(٧) انظر المقري ـ الجنحاني ٤٢.

wadod.org

البخاري بإسناد سنده إلى ابن حجر، وأجاز جميع تآليفه وذكر نص الإجازة[١].

هذه الحواضر تلمسان وفاس ومراكش رسخ حبها في نفس المقري وتركت آثارها على ثقافته وتوجهاته، ودلت على قوة التواصل الفكري والحضاري في مدن المغرب العربي عامة وتلمسان وفاس خاصة. ويكاد من يقرأ أشعاره في الحنين إلى الوطن أن تختلط أمامه ملامح هذا الوطن الذي يحن إليه أهو تلمسان أو فاس؟ أم الجزائر خاصة أم المغرب؟

ويستخدم تعبير المغرب الأقصى في حديثة عن الحنين إلى الوطن (إنه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب أو رد.. برحلتي من بلادي ونقلتي عن محل طارفي وتلادي بقطر المغرب الأقصى[٢]).

وأكثر من هذا التوسع في مفهوم الوطن نجده حين يذكر قصور الأندلس وأنهارها ونافوراتها يتحدث عنها وكأنه يتحدث عن موطنه. وينبه بأن الحديث عن هذا الموضوع واسع، وأنه ما ذكر ما ذكره إلا لينبه من ينتقص المغاربة على فضلهم وذوقهم وعلمهم[٣].

وأول الأشعار التي ذكرها في الحنين إلى الوطن قوله:

قطـــــر كـــــأن نسيمـــــه نفحـات كـافـور ومسكـدر هـوى فـي
وكـــــأن زهـــــر ريـــــاضـــــه نظـــــم سلـــــك

ويذكر أنه يحن إلى موطن شبابه وأحبته وأهله:

بـــه كـــان الشبـــاب اللـــدن غضـــا ودهـــري كلـــه زمـــن الـــربيـــع
ففـــرق بيننـــا زمـــن خـــؤون لـــه شغـــف بتفـــريـــق الجميـــع

ويتوق إليها وقد اتسع البعد بينه وبينها وهو في مصر:

وأربـــع أحبـــاب إذا مـــا ذكـــرتهـــا بكيـــت وقـــد يبكيـــك مـــا أنـــت ذاكـــر
ومـــا جنـــة الـــدنيـــا ســـوى مـــا وصفتـــه ومـــا ضـــم منـــه الحســـن نجـــد وحـــاجـــر
بـــلادي التـــي أهلـــي بهـــا وأحبتـــي وقلبـــي وروحـــي والمنـــى والخـــواطـــر[٤]

إننا نلمح من خلال أشعاره في الحنين إلى الوطن إحساساً بالوطن الواسع الأرجاء الذي لم يقصره على تلمسان وحدها، وإنما امتد ليشمل المغرب العربي[٥]، فلا عجب أن نجده يضيف لألقابه لقب المغربي. إنها وحدة الأمة قبل أن تقطع أوصالها الحدود المفتعلة.

وإحساس المقري هذا يدل على روح التواصل العالمي والفكري التي عاشها، وحمل نفحاتها أينما حل في المشرق العربي.

---

(١) روضة الآس ٢٩٥.
(٢) نفح الطيب ١/ ١٣.
(٣) نفسه ١/ ٤٩٩.
(٤) نفسه ١/ ١٧.
(٥) نفسه ١/ ١٣.

wadod.org

أما تواصل المقري مع المشرق فيبدأ برحلته التي بدأها عام ١٢٠٧هـ في ثغر تطاوين غرب الجزائر[١] حيث وصف هذه الرحلة البحرية، وما تعرض له من أخطار البحر، وأمواجه الهائجة وخطر العدو الإفرنجي ملخصاً قلقه من المفاجآت بقوله:

ثلاثة ليس لهم أمان البحر والسلطان والزمان

حتى إذا رست السفينة على بر الأمان شعر بالفرحة والراحة، فذكر أشعاراً في وصف مصر، ونهرها النيل وردت في أقوال المشارقة والمغاربة، وهنا يشير إلى أول عمل علمي له في مصر وهو إضافة معلومات لحاشية إفادة المغرم المغرى بتكميل شرح الصغرى في ثغر الإسكندرية عام ١٢٠٨هـ[٢].

وتوجه إلى الأزهر الشريف حيث رواق المغاربة، بمجرد وصوله التف حوله طلبة العلم فأخذ يملي عليهم الحديث ويلقنهم العلوم[٣].

وبعد أن أدى فريضة الحج وزار بيت المقدس والشام عاد مرة أخرى إلى مصر عام ١٢٠٩. وفي هذه الزيارة نراه يشكو من كون أهل المشرق غير محققين فضيلة العصريين من أهل المغرب. ولعل ذلك بسبب ما عاناه في مصر من حسد بعضهم له.

وقد أشار في أبيات إلى خيبة أمله في مصر وأنه صار منسياً فيها، وأنهم لم يعرفوا حق قدره كما كان معروفاً في وطنه أو كما عرف في الشام قائلاً:

تركت رسوم عزي في بلادي وصرت بمصر منسي الرسوم
ورضت النفس في التجريد زهداً وقلت لها عن العلياء صومي
مخافة أن أرى بالحرص ممن يكون زمانه أحد الخصوم[٤]

ومع هذه النفثات الحزينة ـ فإن وضع المقري في مصر لم يكن دائماً على هذه الشاكلة فقد بلغت رحلاته إليها خمس مرات[٥] وطبيعي أن تختلف حياته فيها استقراراً أو قلقاً سروراً أو حزناً، فقد نقل صورة لمجلس له في القاهرة نال به إعجاب المصريين. وإن لم يصل إلى إعجاب الدمشقيين به. وحين تولى التدريس في الأزهر رحب به قاضي القاهرة عبد الكريم الغنيمي جاعلاً تدريسه في الأزهر إحياء لدور الأزهر في نشر الثقافة بين العلماء والطلاب قائلاً: (واستبشرنا من أنفاس معارفه بعد دروس قد درست.. فدعونا الله بان يديم إقامته بهذه الديار نفعاً للطلبة بل وللعلماء الأبرار)[٦] وفي مصر تتلمذ عليه عدد كبير من العلماء كان منهم مثلاً الغزي عبد القادر

(١) المقري ـ الجنحاني ٤٤ عن فتح المتعال (المخطوط) وقد رأيت نسخة مطبوعة طبعة حجرية في المكتبة المركزية ببغداد، ولم أعثر على نسخة منها في عمان.
(٢) نفسه ٥٢.
(٣) المقري محمد بن عبد الكريم ١٩٣ عن عبد الحي الكتاني ـ فهرس الفهارس ٢/ ١٣.
(٤) المقري ـ الجنحاني ٥٤.
(٥) المقري ـ محمد بن عبد الكريم ٢٢٥.
(٦) نفسه ٥٣ عن فتح المتعال، وانظر المقري ـ محمد بن عبد الكريم ٢٢٧.

wadod.org

بن الشيخ الغصين. وقد أفادنا هذا سبب نظم المقري لأرجوزته في العقائد فيذكر أنه كان يقرأ على المقري صغرى الشيخ السنوسي في مصر. فسألوه أن ينظم في العقائد فكان كلما قرأ درساً نظمه فيقرأه في اليوم التالي إلى أن ختمها[١].

وفي مصر أنجز المقري وعده الذي قطعه في دمشق لتأليف كتاب يعرف بالمغاربة والأندلسيين وبلسان الدين ابن الخطيب خاصة وهو كتابه نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب.

وكان قد أنجز من قبل إتحاف المغرم المغرى بتكميل شرح الصغرى عام ١٠٢٨هـ، والنفحات العنبرية في وصف نعل خير البرية الذي انتهى من تبيضها في مصر سنة ١٠٣٠هـ، وإضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة ١٠٣٦هـ[٢].

وكان التواصل بينه وبين علماء المغرب مستمراً طوال إقامته في مصر حيث يمر عليه من يتوجه إلى الحج، أو يقوم هو بلقائهم[٣]، وكانت الرسائل تأتيه من المغرب والمشرق. فأما من المغرب فقد ذكر فيها الرسائل التي كانت تستحثه للانتهاء من كتاب فتح المتعال[٤]، وكان قد جمع أكثر من مائة قافية في المغرب، وذكر هذا في أحد مجالسه في القاهرة[٥].

أما رحلته إلى الحجاز فقد توجه إلى الحج عن طريق البحر، ووصل جدة ومنها توجه إلى مكة. وهنا يفيض المقري بوصف مشاعر الفرح والوجد لقربه من بيت الله قائلاً:

(ولما وقع بصري على البيت الشريف فكدت أغيب عن الوجود، واستشعرت قول العارف بالله الشبلي..).

وأكمل العمرة، وحدد تاريخها في عام ثمانية وعشرين وألف وأقام في مكة حتى قرب موعد الحج فأحرم وأدى الفريضة، ولكنه لم يقم في مكة لظروف لم يذكرها، وإنما ذكر أنه توجه بعدها إلى طيبة المدينة المشرفة، حيث أوحت له بتذكر أجمل الأشعار المغربية والمشرقية في ذكر التشوق إلى المدينة المشرفة وساكنها عليه الصلاة والسلام، ويتذكر أنه دخل مكة خمس مرات وحصلت له بالمجاورة منها المسرات، وأملى فيها على قصد التبرك دروساً عديدة. وأما المدينة المشرفة فقد زارها سبع مرات هذا حتى عام ١٠٣٩ [٦].

---

(١) الرحلة العياشية ٢/ ٣٠٦ ويبدو أن هذا القول إشارة إلى أول نظمه وكتابته للأرجوزة أما تاريخ إتمامه لها فهو ١٠٤٢هـ على ما ذكره الجنحاني اعتماداً على نسخة مخطوطة ضمن مجموعة في الصادقية بخزينة جامع الزيتونة المقري ٩٥.

(٢) المقري، محمد بن عبد الكريم ٢٢٨.

(٣) محاضرات اليوسي ص ٥٨عن المصدر السابق ص ٢٢٣.

(٤) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض/ المقري تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإنباري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩ ٣/ ٢٦١.

(٥) أزهار الرياض ٣/ ٢٦١.

(٦) نفح الطيب ١/ ٤.

wadod.org

بيت المقدس:

بعد أداء المقري الحج عاد إلى مصر ١٠٢٩هـ، ولم يقم فيها طويلاً لأن نفسه تاقت لزيارة بيت المقدس، وما أن دخلها حتى تذكر علماً من أعلام فلسطين وهو الحافظ بن حجر القسطلاني الذي قال:

إلى البيت المقدس جئت أرجو ... جنان الخلد نزلاً من كريم
قطعنا في مسافته عقاباً ... وما بعد العقاب سوى النعيم[١]

ويزور المسجد الأقصى، فتبهره معالمه، ويدهشه جماله، وتأخذه مشاعر الإيمان والخشوع، ويسأل عن محل المعراج الشريف فيُرشد إليه ويشاهد المحل الذي صلى فيه الرسول ﷺ بالرسل الكرام، وأنشد شعر بعض الموفقين الذي يرى أنه مما ينبغي أن تزمزم به الحداة، يتغنى فيه ببيت المقدس وبإسراء الرسول الكريم:

إن كنت تسأل أين قد ... ر محمد بين الأنام
فاصغ إلى آياته ... تظفر بربك في الأوام
أكرم بعبد سلمت ... تقديمه الرسل الكرام
في حضرة للقدس وا ... فاها بعز واحترام
صفوا وصلوا خلفه ... إن الجماعة بالإمام[٢]

ويبدو أن هذه الزيارة ليست الأولى فقد سبقتها زيارة أخرى ذكرها عرضاً في ترجمته لأبي عبد الله القرشي الهاشمي المتوفي سنة ٥٩٩هـ إذ ذكر المقري بأن قبره ظاهر يقصد للزيارة وأنه زاره في أول قدماته على بيت المقدس سنة ١٠٢٨[٣].

وفي عام ١٠٣٧ زار المقري غزة وهو في طريقه لزيارة أخرى لبيت المقدس. وهنا تبدو أهمية ما سجله المقري في رحلاته إلى المشرق فقد وصف دخوله غزة، ونزوله مكرماً في مدرستها. ووصف هذه المدرسة أنها قبلة المسجد الأعظم ليس بيننا وبين المسجد إلا الطريق، وأن شيخ المدرسة ابن الغصين كان يجلس فيها هو وأصحابه فيقرأون خمسة أحزاب من القرآن كل يوم قبل طلوع الفجر مناوبة، وأن فيها خزانة كتب، وأن فيها كتباً علمية، وأن إلحاق المدرسة بالجامع كانت بفضل تقدير أمير البلد للمقري، إذ إنه في إحدى زياراته السابقة للمدينة توسط للشيخ الغصين المقري عند أميرها عن فضل بناء المدارس والمساجد وأن الشيخ يرغب في أن تكون المدرسة ملحقة بالمسجد فوافق الأمير ودعا في حينه أن يكتب أمره وأحضر الشهود، وحبس على ذلك المحل أوقافاً[٤].

---

(١) نفسه ٥٤.
(٢) نفح الطيب ١/ ٥.
(٣) نفسه ٢/ ٥٤.
(٤) انظر رحلة العياشي، عبد الله، طبعة حجرية ١٣١٦هـ، ٢/ ٣٠٥، المقري محمد بن عبد الكريم ٢٠٤.

wadod.org

دمشـــق:

وأما رحلته إلى دمشق فالحديث عنها طويل، وإقامته فيها صورة للتواصل بين العلماء، ووحدة الفكر التي تجمعهم فلا تفرق بينهم الأصول واختلاف المواطن.

أحب المقري دمشق، وتحدث عنها كثيراً فهي عنده قرينة الأندلس التي بكاها، وتغنى بأمجادها، ودمشق عنده حبيبة يمكن أن يلخص أسباب تَعلقه بها بما يأتي:

١ ـ أن الذي دعاه لتأليف كتاب نفح الطيب وشجعه عليه رجل من أهل الشام.

٢ ـ أن فاتحي الأندلس هم أهل الشام.

٣ ـ أن غالب أهل الأندلس من أهل الشام الذين اتخذوها وطناً.

٤ ـ أن غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها لشبهها في القصر والنهر والدوح والزهد والغوطة والفيحاء[١].

ذكر المقري أنه دخل دمشق في شهر شعبان سنة ١٠٣٧هـ، ويحدثنا عن سبب زيارته أول مرة لها بأنه في إحدى زياراته لمكة المكرمة لقي عيناً من أعيان دمشق هو الشيخ عبد الرحمن بن شيخ الإسلام عماد الدين ورأى من علمه الجم، وتآليفه الجيدة ما جعله يرغب في زيارة دمشق[٢].

وعندما رأى ديار الشام ارتاحت لها نفسه، وتفاءل للشبه الكبير بين طبيعتها وطبيعة بلده.

ويبدو أنه لقي صحبة علمية طيبة في دمشق كانت تنتظم في سلك المحاورات والآداب، وتناشد الأشعار وكان المقري خلالها حلقة الوصل بين المشرق والمغرب حقاً. وحين تذاكر مع علمائها بما يحمله من علم المغاربة والأندلسيين شوقهم إلى المزيد من المعلومات.

وكان المقري معجباً بلسان الدين ابن الخطيب، وكان أديبه المحبب إلى نفسه الفارس الذي حدث المشارقة عنه، فرغب الشاميين به، وشوقهم للمزيد من المعلومات عنه وعن الأندلس.

لقد كان المقري فعلاً صلة الوصل التي أنعشت العلاقة الثقافية بين المغرب والمشرق فشوق الشاميين لمعرفة ابن الخطيب حتى (لهجوا به دون غيره وحتى صار كأنه كلمة إجماعهم، وعلق قلوبهم وأضحى منتهى ومنية آمالهم وأطماعهم)[٣].

وكان من أهم مشجعي المقري رجل أسماه المولى أحمد الشاهيني[٤] فكان كتاب نفح الطيب ثمرة التواصل الفكري في المجالس العلمية في الشام. وأحس المقري أن أهل دمشق قد

---

(١) نفح الطيب ١/ ١١٧.
(٢) نفسه ١/ ٦٢.
(٣) نفح الطيب ١/ ٧٠.
(٤) ترجمته في خلاصة الأثر ١/ ٢٠.

wadod.org

عرفوا مكانته العلمية، وعرفوا فضل بحره ومعرفته الزاخرة[١].

وارتحل المقري إلى مصر، وفي ذهنه تشجيع الشاميين، وتقديرهم له، فشرع في القاهرة بتأليف كتاب نفح الطيب... وتأتيه رسالة ابن شاهين يحثه فيها على استنجاز ما وعد به[٢]، وقد أورد قصيدة ابن شاهين التي ذكرها في رسالته ونجد فيها ما يشير إلى التبادل الثقافي الذي شهدته دمشق في أخذ علمائها عن المقري. فابن شاهين نفسه يصرح بأخذه العلم عنه قائلاً:

أقسمت بالبيت العتيق الذي ... حجت إليه الناس والمشعر
ما للعلا والعلم إلا أبو ... العباس شيخي أحمد المقري
ذاك الذي أثرني فيه بال ... علم الذي للغير لم يؤثر
وخصني منه بأشياء لم ... يفز بها غيري ولم يعثر

إلى أن يقول:

واذكر بويتاتي وكل الذي ... كتبته نحوك في دفتري

فهو يصرح بأخذه العلم عن المقري وتسجيله علمه في دفاتره، ويصفه بشيخي قائلاً وكنت سألت شيخي حين ورد دمشق الشام واشتم فيها العرار والبشام، وشرفني فعرفني وشاهدني وعاهدني على أن يجري ما دار بيننا لدى المحاورة... في ديباجة الكتاب[٣].

أما المقري فقد صرح بأنه أخذ هو نفسه من ابن شاهين العلم، أخذ عنه رواية مسند الإمام أحمد، ووصف روايته، وحسن أسانيده[٤].

لقد شهد المقري في دمشق يوم تكريمه لعلمه ومكانته ما جعله يقول (لو شريت بعمري ساعة ذهبت من عيش معهم ما كان بالغالي) وذلك أنه ألقى درساً بالجامع الأموي حضره الكبار والصغار سنة ١٠٣٧هـ حتى ضاق بهم المكان، وأدهش السامعين بغزارة علمه، وقوة حافظته، وفصاحة لسانه، واعترف الدمشقيون للمقري بالفضل والعلم فتظافر عليه الطلبة للإجازة[٥].

وصف المحبي أحد المجالس التي عقدها المقري في دمشق بأنه أملى صحيح البخاري بالجامع تحت قبة النسر بعد صلاة الصبح، ولما كثر الناس بعد أيام خرج إلى صحن الجامع تجاه القبلة المعروفة بالباعونية، وحضره غالب علماء دمشق، وأما الطلبة فلم يتخلف منهم أحد، وكان يوم ختمه حافلاً جداً اجتمع فيه الألوف من الناس، وعلت الأصوات بالبكاء فنقلت حلقة الدرس من وسط الصحن إلى الباب الذي يوضع فيه العلم النبوي في الجمعيات في رجب وشعبان ورمضان وأتي له بكرسي الوعظ فصعد عليه، وتكلم بكلام العقائد والحديث لم يسمع

(١) نفح الطيب ١/ ٦٥.
(٢) نفسه ١/ ٧٥.
(٣) نفسه ١/ ١٠٣.
(٤) نفسه ١/ ١٠١.
(٥) نفسه ٣/ ١٤٠، وانظر المقري ـ الجنحاني ٤٦.

wadod.org

نظيره أبداً، وتكلم عن ترجمة البخاري، وكانت الجلسة من طلوع الشمس إلى قريب الظهر وكان ذلك عام ١٠٣٧ [١].

٢ ـ رحلاته المغاربة إلى المشرق:

خص المقري الباب الخامس من كتاب نفح الطيب للتعريف بالرجال الأندلسيين الذين ارتحلوا إلى بلاد المشرق فقدم معلومات مهمة عن تراجم أعلام نقلها من مؤلفات ضاعت معظمها، ووصل بعضها. فكان كتابة موسوعة شاملة لتراجم الأندلسيين مما لم يجمع في كتاب مثله. والمهم في هذه التراجم أنه عني بتسجيل جهود المغاربة في المشرق العربي سواء، في أخذهم العلم وسماعاتهم على العلماء أو نشرهم العلم وإقامتهم حلقات الدرس في المدن الشرقية.

وفي التقاط هذه المعلومات دلالة كبيرة على عناية المقري بما يؤكد التواصل الفكري والعلمي بين المشرق والمغرب، واستخلاص هذه المعلومات يدل على توجهات فكرية رائعة دفعت أعداداً كبيرة من العلماء وطالبي العلم نحو الشرق لهدف المعرفة.. وقد شملت هذه السياحة زمنياً قروناً طويلة حتى عصره، ومكانياً شملت أرضاً واسعة الأرجاء تبدأ من الأندلس، فالمغرب، فمصر ثم بلاد المشرق التي تمتد إلى الحجاز والشام والعراق، وتتوغل شرقاً إلى خراسان وبلاد النهر.

وقد تكوون وجهة المسافر منهم أخذ العلم أولاً مثل ما حدث لأبي بكر بن العربي الذي ارتحل من الجزائر إلى تونس فالإسكندرية فدمشق فبغداد حيث سمع فيها على كبار العلماء كأبي حامد الغزالي وأبي بكر الشاشي وبعدها توجه إلى الحج [٢].

وتفاوتت فاعلية هذه الرحلات، وثمرات التواصل بين المشرق والمغرب فكانت تظهر في توسع علم العالم بكثرة من يأخذ عنه حتى إذا عاد إلى بلده حمل ثمرات ما جناه من العلم الذي أخذه من الأمصار الإسلامية في المشرق، فتظهر في مؤلفات مهمة يحملها معه فيشيع ذكره وعلمه ويثق به ذوو السلطان فيولونه مسؤوليات إدارية أو قضائية، نذكر منهم على سبيل المثال القاضي أبا عبد الله محمد بن عيسى الذي ارتحل لأخذ العلم في المشرق فولي القضاء بعد عودته وجمعه الكثير من الروايات والسماع [٣].

وأدت الرحلات مهمات علمية كبيرة عرفت بالنتاج العلمي في المشرق، فأشاع العائدون فضل بعض المؤلفات التي لم تلقَ من قبل شهرة، ففي ترجمة زياد بن عبد الرحمن بن زياد المعروف بشطبون (ت١٩٣هـ) يذكر أن رحلاته إلى المشرق أثمرت بعد عودته علماً واتجاهاً

(١) خلاصة الأثر، المحبي، القاهرة، المطبعة الوهابية، ١٢٨٤هـ، ١/ ٣٠٥، مقدمة إحسان عباس نفح الطيب ١/ ٩.
(٢) نفح الطيب ٢/ ١٥.
(٣) نفسه ٢/ ١٢.

wadod.org

فقهياً رسخ في الأندلس، فقد سمع من مالك الموطأ وعرف سماعه بسماع زياد. وأنه رحل في ذلك العصر جماعة مع شطبون هذا منهم فرغون بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند، وغيرهم ممن رحل إلى الحج أيام هشام بن عبد الرحمن والد الحكم. فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه، وجلالة قدره ما عظم به صيته بالأندلس، فانتشر يومئذٍ رأيه وعلمه، وكان رائد الجماعة في ذلك شطبون[١]. ثم بين أهمية قراءة شطبون على مالك وأنه أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس مكملاً متقناً، فأخذه عنه يحيى بن يحيى[٢].

ويرى المقري أن أهل المشرق قصرت عليهم العلوم النظرية دون المغاربة الذين انصرفوا إلى الفقه إلا أنه التفت إلى أهمية الرحلات العلمية في ترسيخ التواصل العلمي، وانتقال العلوم من المشرق إلى المغرب خاصة العلوم النظرية قائلاً: ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زيتون إلى المشرق، فلقي تلاميذ الخطيب، ولازمهم زماناً حتى تمكن من ملكة التعليم، وقدم إلى تونس فانتفع به، وانتهت طريقته النظرية إلى تلميذه عبد السلام، واستقل تلميذه ابن عرفة بعد بتلك الطريقة، وكذلك ابو عيسى موسى بن الإمام التلمساني، ولهذا نجد أثر العلوم النظرية بتلمسان[٣].

ومن صور التواصل الفكري انصراف العائدين إلى ديارهم للإقراء ورواية العلم ومنهم على سبيل المثال فقط:

ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن هذيل البلنسي: رحل وسمع من السلف وحج... وأخذ بمكة سنة ٥٣٩هـ عن أبي الحسن المقري، وقفل إلى الأندلس سنة ٥٤٦هـ فأخذ عنه العلم[٤].

ـ أبو عبد الله محمد بن عمروس القرطبي: سمع بمصر وحج، ودخل العراق، وسمع من أبي بكر الأبهري، والدارقطني، وجماعة، وعاد إلى الأندلس وشهر بالعلم والمال[٥].

ـ أبو ذر الهروي: ذكرت رحلاته الكثيرة طلباً للعلم، كما ذكر نشاطه في التحديث في بغداد، قيل عنه (وأكثر نسخ البخاري الصحيحة بالمغرب أما من رواية الباجي عن أبي ذر الهروي وأما من رواية أبي علي الصدفي المشهور بابن سكرة[٦].

ـ أبو الوليد الباجي: كان المشارقة والمغاربة يفتخرون بالرواية عنه، وأنه حين عاد إلى الأندلس عاد بحراً لا تخاض لججه[٧].

---

(١) نفسه ٢/٤٦.
(٢) نفسه.
(٣) ١/٥٦.
(٤) نفسه ١/٥٩.
(٥) نفسه ٢/٦١، ٦٢.
(٦) نفسه ٢/٧١.
(٧) نفسه ٢/٧٤.

wadod.org

- ونجد من خلال التراجم التي يوردها المقري ملاحظات علمية مهمة وطرائف وظواهر حضارية سجلها طالبوا العلم. ومن ذلك ما قام به المقري نفسه من مقارنة أهل المشرق والمغرب فرأى أن الكدية المعروفة بالمشرق والتي تعج بها السواق مستقبحة عندهم، وإذ رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة سبوه وأهانوه[١].

وقارن بين المشرق والمغرب من قراءة القرآن الكريم، وسجل ما هو معروف في المغرب من التزام أهلها بمذهب واحد هو مذهب الإمام مالك، وإن خواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يعينهم على الحوار في مجالس العلوم. أما مكانة الفقيه عندهم فجليلة، حتى إن الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم إذا أرادوا تنويهه بالفقيه، يم يأتي بمرادف لفظ الفقيه في المشرق فيرى أنها لفظة القاضي وأن المغاربة قد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه، لأن هذا اللقب من أرفع الألقاب عندهم[٢].

ونقل المقري عن مطمح الأنفس ما وصف به عبد الملك بن حبيب السلمي بأنه لم يكن له علم بالحديث، فناقش هذه الرواية من خلال مقارنته بين مناهج المشارقة والمغاربة بقوله: فأما ما ذكره من عدم معرفته بالحديث فهو غير مسلَّم به، وقد نقل عنه غير واحد من جهابذة المحدثين. نعم لأهل الأندلس غرائب لم يعرفها كثير من المحدثين حتى إن في شفاء عياض أحاديث لم يعرف أهل المشرق النقاد مخرجها مع اعترافهم بجلالة حفاظ الأندلس الذين نقلوها كبقي بن مخلد وابن حبيب وغيرهما[٣] في كتاب أزهار الرياض يقيم موازنة بين المشارقة والأندلسيين في التأليف، فأغلب تأليف المشارقة الإيجاز، لتمكن ملكتهم من التصرف مثل كتاب ابن الحاجب في فروعه وفي أصوله، والخونجي في المنطق وغيرهما... وأما أهل الأندلس فالغالب عليهم فيهقة البلاغة في حسن رصف الكلام وانتقائه. ويقارن بين المشارقة والمغاربة في العلوم النظرية فيرى أنها قاصر ة على البلاد الشرقية، ولا عناية لحذاق القرويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه[٤]. ونلتقط من هذه الرحلات أخباراً مهمة تصور جوانب حضارية طريفة مثل الفوائد التي سجلها المقري عن أبي بكر بن العربي كوصفه لبيوت دمشق حين ذكر أنه دخل بعض بيوت الأكابر فرأى نهراً جائياً إلى موضع جلوسهم، ثم يعود من ناحية أخرى فلم يفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام من النهر المقبل إليهم، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيديهم، فلما فرغوا ألقى الخدم الأواني وما معها في النهر الراجع، فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم تلك الناحية، فعلم السر[٥].

ووصف لقاءه للإمام الغزالي حين كان نازلاً في رباط أبي سعد بإزاء النظامية وأنه مشى إليه مع جماعة عرفوا أنفسهم وأخبروه برغبته بلقائه والأخذ منه.. وتحقق لهم ما سمعوه عن

---

(١) نفسه ٢/ ٢٠.
(٢) نفسه ٢/ ٤١.
(٣) مطمح الأنفس ٣٦، نفح الطيب ٢/ ٨.
(٤) أزهار الرياض ١/ ٢٦.
(٥) نفح الطيب ٢/ ٣٣.

wadod.org

الغزالي هو دون ما رأوه منه[١].

وذكر في سيرة القاضي أبي عبد الله محمد بن أبي عيسى ما شاهده من رقة أهل العراق، وأريحية القاضي الذي كتب أبياتاً من الشعر في بستان بغدادي دعاه، فسمع الأبيات وكتبها على كفه، وبقيت وهو يؤدي الصلاة[٢]. وواضح أن في هذا الخبر مبالغة كبيرة القصد منها توكيد حسن قراءة ابن الكازروني للقرآن الكريم، وارتفاع صوته، وتأثيره في النفوس.

ومما نقله من طرائف أخبار الرحلات ومجالس العلم ما وصفه في المسجد الأقصى من حضور ابن الكازروني الذي كان يأوي إلى المسجد الأقصى مدة ثلاث سنوات وأنه كان يقرأ في مهد عيسى عليه السلام، فيسمع في الطور فلا يقدر أحد أن يصنع شيئاً دون قراءته إلا الإصغاء إليه[٣].

ومن الأخبار الغريبة والطريفة ما ذكره في ترجمة أبي الصلت أمية بن أبي الصلت وأنه قضى عشرين عاماً محبوساً في خزانة الكتب في مصر، وكان صاحب المهدية قد وجهه إلى صاحب مصر، فسجن بها تلك المدة في خزانة الكتب فخرج في فنون العلم إماماً[٤].

ومن الفوائد التي قدمها المقري عن التواصل الفكري بين أهل المغرب والمشرق ما ذكره من حرص المؤلفين على إرسال نتاجهم إلى المشرق، وما لقيه هذا النتاج من قبول وشهرة. والطريف أنهم لم يرسلوه لشخص معين على سبيل التبادل أو التهادي، وإنما كان حرصهم أن يطلع عليه أكبر عدد من طلاب العلم، ولذا كانوا يوقفون ما يرسلونه. فلسان الدين ابن الخطيب أرسل في حياته نسخة من الإحاطة إلى مصر ووقفها على أهل العلم، وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء بعد أن فوض قاضي القضاة وكان يومئذٍ في الإسكندرية، وأنابه ليجعل الكتاب وقفاً شرعياً على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونسخاً... وجعل النظر في ذلك للشيخ العلامة أحمد بن أبي حجلة ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه. وقد طالع المقري هذا الكتاب، ووصفه بأنه يقع في ثماني مجلدات[٥]. وأنه وجد بظهر أول ورقة منه خطوط جماعة من العلماء انتفعوا منه، ودعوا لمؤلفه وسجلوا سنوات قراءاتهم كالمقريزي (٨٠٨هـ) والسيوطي (٨٦٨هـ) والقوصوني الذي ذكر أنه انتفع منه سنة ٩٥٤هـ.

ورأى بهامش هذه النسخة كتابة جماعة من أهل المشرق والمغرب كابن دقماق، والحافظ ابن حجر وغيرهما من أهل مصر، ومن المغاربة ابن المؤلف أبي الحسن علي بن الخطيب، والخطيب الكبير سيدي أبي عبد الله بن مرزوق، والعلامة أبي فضل التلمساني... وعدد كبير من العلماء المغاربة الذين قدموا المشرق وكان لهم حظ الاطلاع على نسخة لسان

---

(١) نفسه ٣٣.
(٢) نفسه ٢/ ١٤.
(٣) نفسه ٤٢، انظر ما ذكره عن بيت المقدس ٢/ ٨٦.
(٤) نفسه ٢/ ١٠٥.
(٥) نفسه ٩/ ٣٣٠.

wadod.org

الدين ابن الخطيب الموقوفة[١].

وتأتي فوائد المقري في تعليقاته على ما ينقله من نقول فقد أورد عن المطمح رواية وأراد أن يسجل فائدة عما قرأه في نسخة من نسخ الكتاب المحفوظة بخزانة الكتب في الجامع الأعظم بتلمسان، وأخذ يفصل في وصف مكان الكتاب في الخزانة فإذا به يصف الخزانة الوسطى التي فوق محراب الصحن وهي التي يجلس بها الأشراف أحفاد الشيخ الإمام علم الأعلام سيدي أبي عبد الله الشريف التلمساني[٢]. ويذكر في موضع آخر رأى في خزانة تلمسان مائة سفر بخط الوادي أشي[٣]، وأنه رأى بخط الفقيه أبي عبد الله محمد بن الحداد الوادي أشي نزيل تلمسان ويذكر القصيدة ولا يكتفي بذكرها، وإنما يذكر التعليقات البسيطة المكتوبة في الهامش. فقد ورد في القصيدة (ما منهم إلا حمار) فيقول: وكتب بخطه الرائق تحت (إلا حمار) ما نصه (البادي أظلم).

إن المعلومات التي أوردها المقري في الرحلات إلى المشرق دقيقة تبين طريقة الارتحال والصحبة فقد كان بعضهم يرحل بصحبة أحد أبنائه حين يتوسم فيه خيراً وعلماً. ومن الفوائد التي نقلها عن الشيخ ابن العربي أنه حذق القرآن ابن تسع سنين، ثم ثلاثاً لضبط القرآن والعربية، والحساب، وبلغ ست عشرة وقد قرأ من الأحرف نحواً من عشرة بما يتبعها من إظهار وإدغام وتمرن في العربية، والشعر واللغة. ثم رحل به أبوه إلى المشرق[٤].

وقد تكون رحلة الأب مع ابنه للحج وأخذ العلم معاً، ويبقيان متصاحبين في رحلتهما العلمية. مثال ذلك قاسم بن ثابت العوفي رحل مع أبيه، فسمع في مصر أحمد بن شعيب النسائي، وأحمد بن عمر البزار، وبمكة من عبد الله بن علي بن الجارود، ومحمد بن علي الجوهري، واعتنى بجمع الحديث هو وأبوه، فأدخلا إلى الأندلس كثيراً، ويقال أنهما أول من أدخل كتاب العين إلى الأندلس، وألف قاسم كتاب الدلائل بلغ فيه الغاية والإتقان ومات قبل إكماله فأكمله أبوه ثابت بعده[٥].

أما المناظرات والمحاورات التي دارت بين علماء المغرب والمشرق نجدها في التراجم التي أوردها المقري في ممتعه وتحمل طرائف جميلة تحدث في أول لقاء للغريب في مجلس من مجالس العلم. مثل ذلك ما روى عنه القاضي المنذر البلوطي مجلس أبي جعفر النحاس في مصر قبل أن يعرفه لم يستسيغ صاحب المجلس أو المحاضر تدخل الغريب أول مرة فإذا تجاوز .... إحراجه بإظهار خطأ أو وهم فإن الأمر قد ينتهي إلى غير ما تنتهي إليه الأخرى، وقد تؤدي إلى نفور أو مقاطعة. من ذلك ما رواه القاضي منذر .... أنه أتى أبا جعفر ابن النحاس في مجلسه في مصر وكان ابن النحاس يملي في الشعراء فأنشد من شعر

---

(١) نفسه ٩/ ٣٢٨.
(٢) أزهار الرياض ١/ ١٩.
(٣) نفسه ١/ ٣٠٢.
(٤) نفسه ٢/ ٤٣.
(٥) نفسه ٢/ ٤٩، وانظر ص ٢٩.

wadod.org

قيس المجنون قوله:

خليلي هل بالشام عين حزينة تبكي على نجد لعلي ....
فقد أسلمها الباكون إلا حمامة مطوقة باتت وبات ....

فقلت له يا أبا جعفر ماذا ـ أعزك الله تعالى ـ باتا يصنعان؟ فقال لي .... أنت يا أندلسي؟ فقلت: بانت وبان قرينها. فسكت. فما زال يستثقلني حتى .... العين، وكنت ذهبت للانتساخ من نسخته فلما قطع بي قيل لي: أين أنت عن أبي العباس ابن ولاد، فقصدته، فلقيت رجلاً كامل العلم حسن المروءة فسألته الكتاب فأجابني ثم ندم أبو جعفر لما بلغه إباحة أبي العباس الكتاب لي، ورحل ابن العربي حجة ثمان وثلاثين فاجتمع بعده أعلام، وظهرت فضائله في المشرق وسمع عليه بمكة محمد بن المنذر النيسابوري كتابه المؤلف في اختلاف العلماء المسمى الأشراف. وروى بمصر كتاب العين للخليل عن أبي العباس ابن ولاد[١].

وهناك عدد من علماء المغرب الذين ارتحلوا إلى المشرق ولم يكن دورهم السماع فقط إنما أسهموا في إغناء الحركة الثقافية تدريساً وتأليفاً ومحاورة، فأبو محمد المرسي اللورقي[٢] قدم مصر فقرأ بها على أبي الجود غياث بن فارس، وبدمشق على التاج زيد الكندي وببغداد من أبي محمد بن الأخضر، وأخذ العربية عن أبي البقاء ولقي الجزولي بالمغرب. هذا الرجل لم يكتف بالأخذ من هذه الحواضر إنما درس وألف فقيل عنه أنه أقرأ بدمشق، ودرس وشرح المفصل في النحو في أربع مجلدات فأجاد[٣].

وذكر أبا المقري عبد الله محمد بن سراقة الشاطبي (ولد سنة ٥٩٣هـ وتوفي سنة ٦٦٢هـ) وأنه تولى مشيخة دار الحديث البهائية بحلب. وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة[٤].

وأما أبو عمرو عثمان بن الحسين فهو أخو الحافظ أبي الخطاب ابن دحية كان أسن من أخيه، وكان حافظاً للغة العرب قيماً بها، وعزل الملك الكامل أبا الخطاب عن دار الحديث الكاملية التي أنشأها بين القصرين ورتب مكانه أبو عمرو، ولم يزل بها إلى أن توفي سنة ٦٣٤هـ[٥].

وأبو ذر الهروي قال عنه الخطيب إنه دخل بغداد وحدث بها[٦].

وأبو بكر محمد بن أحمد البكري الشريشي درس بالفاضلية في مصر ثم انتقل إلى القدس فأقام به شيخاً للحرم[٧].

وتقدم لنا هذه المعلومات نماذج شامخة لرجال منهم بلغوا مبلغاً جعل وجهاء المدن

---

(١) نفسه ٢/ ١٥. ما وضعنا في محله نقاط، بياض في أصل البحث.
(٢) ترجمته في غاية النهاية ٥/ ١٥.
(٣) نفح الطيب ٢/ ٥٠.
(٤) نفسه ٢/ ٦٤.
(٥) نفسه ٢/ ٦٤، ٦٥.
(٦) نفسه ٢/ ٧٠، وانظر ٢/ ١٣٧، ١٤٣، ٧٠.
(٧) نفسه ٢/ ١٣١.

wadod.org

المشرقية يلتفون حولهم ويطارحونهم العلم ويأخذونه عنهم[١].

وقد يرحل المغربي والأندلسي إلى المشرق وقد بلغ من العلم مبلغاً يؤهله للإفتاء والتدريس ويكون أخذه للعلم من باب استكمال ما فاته. وقد سبقت بعضهم شهرته مثل أبي عبد الله محمد بن عمر القرطبي الذي حج وجاور بالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام، وأفتى بها[٢].

وأبو الخطاب ابن دحية نقل عنه أنه حين ارتحل إلى المشرق في دولة بني أيوب رفعوا شأنه وقربوا مكانه وجمعوا مجلساً ضم علماء الحديث، واختبروا علمه الحديث وأسانيده ومتونه[٣].

وذكرت لبعضهم مهارات أخرى غير الإفتاء والتدريس منها سرعة الكتابة مثلما ذكر عن ابن جعفر ضياء الدين محمد بن محمد بن بندار وأنه سمع بدمشق وكتب بخطه كثيراً وكان سريع الكتابة سريع القراءة كثير الفوائد[٤].

هذا العرض السريع يبين الجهود التي قام بها المقري التلمساني عالم الجزائر خاصة والمغرب عامة في ترسيخ التواصل بين المشرق والمغرب من خلال رحلاته بين تلمسان وفاس ومراكش. ومن خلال تراجم الأعلام الذين ارتحلوا من الأندلس والمغرب إلى بلدان المشرق العربي وهو يظهر روح التواصل العلمي والفكري عبر قرون طويلة قام بها أعلام أفذاذ أسهموا في حركة علمية، ووحدة فكرية جعلت المغربي مرتبطاً بالمشرقي، والمشرقي متشوقاً لعلم المغربي، أحدهما يكمل الآخر... فخلّفوا لنا تراثاً ضخماً لم يقتصر على العلم المنقول أو المدون في المؤلفات بل تجاوزه إلى تسجيل دقائق طريفة تشير إلى تفهم ما كان عليه السلف من خلق علمي يتمثل بصبرهم وتحملهم المشاق للقاء العلماء، وتطوعهم للإقراء والتدريس والعطاء، وقد أعانتهم على ذلك حرية النقل بين الأقطار الإسلامية من أقصى المغرب العربي إلى الشرق وإلى أقصى بلاد فارس وخراسان، فلا حدود ولا حواجز ولا تعصب يحول بين المرء وأخذ العلم. لقد اتسعت قلوب الجميع لاحتضان الغريب إذا ألفوا منه علماً وتوسموا فيه خيراً.

ولا يقدح في هذه المسيرة معاناة هذا أو ذاك من هموم الغربة أو البعد عن الأهل أو الشكوى من الجفوة، فتلك نزعات إنسانية لم تحل دون السيرة العلمية.

أما ما قام به المشارقة من رحلات إلى المغرب العربي فقد أرجئنا الحديث عنه إلى مبحث آخر إن شاء الله.

---

(١) نفسه ٢/ ٢١/ ٢٢، ٩.
(٢) نفسه ٢/ ٦١.
(٣) نفسه ٥/ ٩٩.
(٤) نفسه ٢/ ٦٦.

wadod.org

مالك بن المرحل
حياته وشعره

الأستاذ نجيب الجباري(*)

توطئة:

لما قررت اختيار موضوع للبحث في أحد مجالات الأدب، وقع اختياري تلقائياً على الجانب الشعري الذي له في نفسي منذ حداثة سني صلات وقربى، فمنذ طفولتي وأنا أخص الشعر بكل اهتمامي وعنايتي، حتى أصبح بالنسبة لي متعة روحية أحن إليها في أوقات الفراغ لأنهل من معينه العذب، وأستقي من منهله المنعش، وأقرأ ما تيسّر لي من شعر الشعراء العظام. وهكذا وقع اختياري على الشاعر المغربي مالك بن المرحل، لما يتمتع به الشاعر من مكانة مرموقة في دنيا الشعر والأدب جعلته موضع اهتمام كثير من الأدباء والباحثين.

والواقع أن اختياري لهذه الشخصية المغربية كموضوع دراسة، تكمن وراءه أسباب ودواعٍ موضوعية تدخل في إطار البحث عن الذات الضائعة ونفض الغبار عن التراث المشرق المغمور من أدبنا، فضلاً عن أنها فرصة نادرة لمحاولة التمرس بالمصادر القديمة والتعامل معها.

مالك بن المرحل والدارسون السابقون:

إن الأمر الذي لا يدعو للشك هو أن بلاد المغرب قد أنجبت شخصيات عالية المكانة استرعت أنظار الباحثين وأثارت إعجابهم واهتمامهم، بما كان لها من شهرة وظهور، وبما خلفته من بديع الإنتاج ضمن لها الخلود في سجل النابهين من عباقرة الفكر وأقطاب البيان.

إلا أن ذلك السجل الحافل ـ ويا للأسف ـ قد ضاع أكثره، فَفَقَد الأدب العربي باندثاره ذخائر نفيسة وثروة مهمة، كانت قمينة بأن تُبرّأ جانبه المغربي من تلك الاتهامات المتعصبة التي شنها عليها أكثر مؤرخي الآداب العربية.

على أن ما سلم من يد الزمان، من ذلكم التراث، لو تضافرت الجهود على إخراجه وتحقيقه وإيفائه حقه من البحث والاستقصاء لأصبح الأدب المغربي محتلاً مكانته بين آداب الأقطار العربية الأخرى.

(*) باحث من طنجة ـ المغرب.

wadod.org

والحقيقة أن اختيار شاعر عاش في القرن السابع الهجري، وبالضبط إبان الحكم المريني بالمغرب كانت مهمة صعبة وشائكة، وذلك لقلة الدراسات المتخصصة حوله، إذ إن أكثر الذين كتبوا عن الشاعر وشعره، أو بالأحرى ترجموا له كانوا من الذين أرخوا لأخبار وأحداث المدن والدول، وكانت كتبهم هذه أقرب إلى التأريخ منها إلى الأدب، اللهم ما عرضوا فيها، وفي مقالات صغيرة لا تتجاوز الصفحات القليلة لشعر الشاعر وحياته.

ويمكن أن نقسم الدارسين السابقين حول الشاعر إلى دراسات قديمة وأخرى حديثة.

١ ـ فأما الدراسات القديمة فهي التي تتمثل في كتب التاريخ وكتب التراجم، والمعاجم وكتب الطبقات.

١ ـ ١ : كتب التاريخ:

فهي تلك الكتب والمصنفات التي أرخت للمدن والدول التي تعاقبت عليها، ككتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» لابن الخطيب[١] الذي من خلال تأريخه لمدينة غرناطة ترجم للكتاب والشعراء الذين نزلوا بها، ومنهم شاعرنا الذي تولى منصب القضاء مدة بجهاتها. ونقل ابن الخطيب في تعريفه بابن المرحل تعريفات أبي جعفر بن الزبير الذي قال عن الشاعر بأنه «شاعر رقيق مطبوع، متقدم، سريع البديهة، رشيق الأغراض، ذاكر للأدب واللغة»[٢] وهي جملة صفات يتفق عليها كل من ترجم لصاحبنا وكتب عنه.

وابن عبد الملك المراكشي الذي ذكره ولكنه لم يستوفِ ما استوفى لغيره كما استنتج ابن الخطيب. ثم كتاب «الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية» لصاحبه علي بن أبي زرع الفاسي[٣]، وهو كتاب جمع بين التاريخ والأدب. وإننا لنجد ذكراً لشاعرنا في غير قليل من الصفحات، فضلاً عن قصيدتين له: إحداهما يحض فيها المسلمين على الجهاد، والأخرى يهنىء فيها أمير المؤمنين بفتح مراكش[٤].

أما كتاب «أزهار الرياض في أخبار عياض» لمؤلفه شهاب الدين أحمد المقري التلمساني الذي تعرض لحياة القاضي عياض في سبتة فقد أورد أبياتاً شعرية لمالك بن المرحل يتغنى فيها بسبتة التي قضى بها جُلّ مراحل حياته[٥].

ونفس الشي نهجه القاسم الأنصاري السبتي صاحب كتاب «اختصار الأخبار» حيث أثبت

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين بن الخطيب، تح محمد عبد الله عنان ـ المجلد ٣ ص٣٠٤.

(٢) المصدر نفسه. المجلد ٣، ص ٣٠٤.

(٣) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، نشره محمد بن أبي شنب ـ دار المنصور للطباعة والوراقة ـ الرباط ١٩٧٢.

(٤) القصيدة الأولى ص٩٨ ـ ٩٩ ـ ١٠٠، والقصيدة الثانية ص١١٩.

(٥) أزهار الرياض في أخبار عياض: شهاب الدين المقري التلمساني، تح السقا والأبياري، القاهرة ١٣٥٨، ج١ ص٢٩ ـ ٢٦٣.

wadod.org

شعراً للشاعر في وصف سبتة وبليونش[١]، وكذلك علي بن أبي زرع الفاسي صاحب «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» حيث ورد ذكر الشاعر في معرض الحديث عن دولة الأمير أبي بكر بن عبد الحق جالسوه ونادموه، ثم ورد ذكره كذلك ضمن لائحة شعراء أمير المؤمنين يوسف بن أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق[٢].

والملاحظ أننا لم نقم بجرد جميع المصادر التاريخية التي تكلمت عن شاعرنا، وإنما أوردنا بعضها كأمثلة فقط. والحقيقة أن هذه المصنفات التاريخية القديمة قد ساعدتنا على الأقل في إلقاء الضوء على حياة الشاعر ومولده ووفاته، ونُتَفٍ من شعره بُثَّتْ هنا وهناك.

١ ـ ٢ : كتب التراجم:

على أن الذي عمّق معرفتنا بالشاعر من حيث مولده ومراحل حياته وتكوينه الثقافي وآثاره، وكل شيء له علاقة به كإنسان وكشاعر هي كتب التراجم التي أفاضت في التعريف بشاعرنا والترجمة له، وعلى رأس هذه الكتب «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي[٣] الذي عدّه من الغرباء وحشره ضمنهم، فعرّف به وبشاعريته قائلاً: «صحبته في بعض أسفاره على ظهر البحر بسبتة والجزيرة الخضراء وغرناطة، وكان من محسني الشعراء ومتقنهيم»[٤]، فهذه الشهادة ـ وهي من معاصر ـ تبين لنا ما كان يتمتع به مترجمنا من ذيوع الصيت وانتشار الذكر. ووردت ترجمة مالك بن المرحل كذلك في «جذوة الاقتباس»[٥] و«درة الحجال» لابن القاضي[٦] و«سلوة الأنفاس للكتاني»[٧] وبرنامج الوادياشي[٨]... وكلها تتفق على تاريخ مولده ووفاته ومكان دفنه، وتُقر بشاعريته ونبوغه، وأنه «الشاعر المغربي الكبير» وأنه «الإمام

(١) اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار: محمد بن القاسم الأنصاري، تح عبد الوهاب منصور، الرباط ١٩٦٩، ص١٠٦.

(٢) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس: علي بن أبي زرع الفاسي، طبعة دار المنصور، الرباط ١٩٧٣، ص٣٠٨.

(٣) الذيل والتكملة على كتاب الصلة: ابن عبد الملك المراكشي، تحقيق د. ابن شريفة، دار الثقافة ـ بيروت.

(٤) المصدر السابق ص٥٢٧.

(٥) جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام بمدينة فاس: أحمد بن القاضي الفاسي ـ دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ص٣٢٧.

(٦) درة الحجال في غرة أسماء الرجال: ابن القاضي، تصحيح معين علوش، المطبعة الجديدة، الرباط ١٩٣٦، القسم ٢ ص٨٩٧.

(٧) سلوة الأنفاس في محادثة الأكياس بمن أُقبر من العلماء والصلحاء بفاس: ابن إدريس الكتاني، طبعة حجرية، ص٩٩.

(٨) برنامج الوادياشي، تحقيق محمد محفوظ ـ دار الغرب الإسلامي ـ أثينا، بيروت، ط١/ ١٩٨٠، ص١٣٩ ـ ١٤٠.

wadod.org

العالم الهمام، النحوي الأديب، اللغوي الأريب، الشاعر المفلق، أحد فضلاء المغاربة»[١].

١ ـ ٣: المعاجم وكتب الطبقات:

وقد عمل أصحابها على التعريف بأشهر الأعلام والطبقات، ككتاب «غاية النهاية في طبقات القراء» الذي ترجم لشاعرنا واعتبره «أديب زمانه بالمغرب وإمام وقته»[٢]، فذكر تاريخ مولده ومسقط رأسه وتاريخ وفاته ومكان دفنه، ثم كتاب «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» للسيوطي[٣] الذي اكتفى بالتعريف بصاحبنا والإقرار بشاعريته وسرعة بديهته وحسن كتابته، وذكر بعض شيوخه الذي أخذ عنهم وأجازوا له كأبي القاسم بن بقي، وأورد بيتين من شعره في مسألة (كان ماذا) التي وقع بينه وبين ابن أبي الربيع النحوي، في شأنها خصومة أدبية لم تخمد لظاها مدة طويلة[٤].

وقد صنع صنيع هؤلاء الشيخ الجليل الأستاذ محمد مخلوف في كتابه «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» معرّفاً بشاعرنا وبشيوخه، وذكر آثار الشاعر مكتفياً بسرد عناوينها، ثم ختم بتاريخ مولد الشاعر ووفاته[٥].

ويمكننا أن ندخل في هذا الإطار كتاب «الأعلام» للزركلي و«معجم المؤلفين» لعمر رضا كحالة، وقد أخرّنا ذكرهما لأنهما مصنفات حديثة (نسبية) نسبياً، ففي الأعلام ذكر مؤلفه شاعرنا ضمن ما ذكره من الرجال الذين ترجم لهم[٦]، وفي معجم المؤلفين عرّف فيه صاحبه ببعض مصنفي الكتب العربية، فأورد شاعرنا من جملتهم[٧].

٢ ـ وأما الدراسات الحديثة: فهي تلك الدراسات التي أقامها أصحابها من أجل التعريف بالأدب المغربي ورجالاته، بحيث ألقوا على عاتقهم مسؤولية بعث الماضي المغربي وإحياء معالمه، إما من خلال الدراسات التي كانوا ينشرونها ـ وبشكل محتشم جداً ـ في صفحات المجلات والدوريات، أو بواسطة جمع تلك المقالات والدراسات ونشرها في كتب مستقلة، وذلك في غالب الأحيان.

ومن جملة هؤلاء الدارسين المحدثين الذين نذروا أنفسهم للتعريف بمظاهر الحضارة والثقافة المغربيتين، وخاصة في عصر بني مرين الذي يُعد بحق العصر الذهبي للعلوم الأدبية

---

(١) السلوة ـ م م ص٩٩.

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء: ابن الجزري ـ مطبعة السعادة بمصر، ١٩٣٥، ج٢ ص٣٦.

(٣) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: السيوطي. ط١، ١٣٢٦هـ، ص٣٨٤.

(٤) انظر بشأن هذه الخصومة: نفح الطيب، ج٤ ص١٤٥، جذوة الاقتباس ص١٨١.

(٥) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: الشيخ محمد بن مخلوف، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان، ص٢٠٢.

(٦) الأعلام: خير الدين الزركلي ـ المجلد ٦، الطبعة الثانية ص١٣٨.

(٧) معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، المجلد ٤، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ص١٦٩.

wadod.org

في المغرب وأزهى عصور إنتاجها، الأستاذ العلامة محمد المنوني الذي كتب عدة مقالات وأبحاث في عدة مجلات مغربية، معرّفاً بالأدب المريني وبأشهر رجالاته، ويضم كتابه «ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين» أكثر هذه المقالات والأبحاث[١].

وكذلك الأستاذ محمد بن شقرون المتخصص في أدب العصر المريني، وله أطروحة جامعية نال بها دكتوراه الدولة باللغة الفرنسية بعنوان «الحياة الفكرية على عهد الدولة المرينية والوطاسية» وفيها جرد عام لأهم المصادر والمراجع التي تعين الدارس الباحث في التيارات الفكرية وعوامل الازدهار الثقافي في العصر المريني، فضلاً عن التعريف بأهم رجالات العصر من شعراء وكتاب مبرزين، كمالك بن المرحل الذي أورد بشأنه قائمة مصادر ومراجع[٢]. ونهج نفس النهج في كتابه «مظاهر الثقافة المغربية» من القرن ١٣ إلى القرن ١٥ حيث قسّمه إلى بابين، اختص الباب الأول بالبيئة المغربية ومعطياتها في عصر بني مرين، وانفرد الباب الثاني بالتعريف بمشاهير الأدباء المغاربة، فحظِيَ مالك بن المرحل بالقسط الأكبر من الدراسة في هذا الباب.

وتطرق الأستاذ «محمد بن تاويت» في كتابه «الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى» إلى مالك بن المرحل الرجل والشاعر، وأورد كثيراً من أشعاره، وخصوصاً قصيدته التي قالها في مدح النعال النبوية والتوسل بها، ثم تناولها بالدرس والتحليل[٣]. ولم يفته وهو يؤرخ لمدينة سبتة على عهد المرينيين من أن يشير إلى مالك بن المرحل كَعَلَم من أعلامها المشهورين ويورد أبياتاً له في مدح هذه المدينة الزاهية[٤]، وتعرض كذلك للشاعر في كتابه «الأدب المغربي» عندما كان يتكلم عن فترة المرينيين والوطاسيين[٥].

وكانت الدراسة المتخصصة الوحيدة هي للعلامة عبد الله كنون رحمه الله، والذي ألقى فيها نظرة سريعة على بعض الجوانب الحياتية والشعرية لمالك بن المرحل، وهو واحد من سلسلة أسماها «ذكريات مشاهير رجال المغرب»[٦] عرّف فيها بأهم مشاهير رجالات المغرب كابن الونان، وأبي جعفر بن عطية، وعبد العزيز الفشتالي وغيرهم.

أما بقية الذين أشاروا إلى ابن المرحل، فقد فعلوا ذلك على صفحات المجلات أو

---

(١) ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين: محمد المنوني ـ منشورات كلية الآداب ـ الرباط ١٩٧٩.

(٢) الحياة الفكرية على عهد الدولة المرينية والوطاسية: د. محمد بن شقرون، الرباط، ١٩٧٤ (بالفرنسية) ص١٤١ ـ ١٤٦.

(٣) مظاهر الثقافة المغربية من القرن ١٣ إلى القرن ١٥: د. محمد بن شقرون ـ مطبعة الرسالة ـ الرباط ١٩٨٢، الجزء ١ ص٣٣٨.

(٤) المرجع نفسه ص٢٢.

(٥) تاريخ سبتة: محمد بن تاويت ـ الطبعة ١ سنة ١٩٨٢، ص١٤٨.

(٦) ذكريات مشاهير رجال المغرب: عبد الله كنون ـ مطبعة كريماص، تطوان، العدد ٨.

wadod.org

الدوريات، ضمن مقالات صغيرة موجزة لم تتجاوز أصابع اليد من الصفحات، كالذي ورد في مجلة الأنيس المغربية بتحرير الأستاذ عبد الرحمان الزياني[١] ومجلة دعوة الحق بقلم الأستاذ محمد العلمي حمدان[٢] وغيرهما، وكلاهما ينتهج نفس الخطة في تناول الشاعر، إذ ينطلق من دراسة الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية التي عاشها مالك بن المرحل، والتي كان لها أثرها في إنتاج الشاعر الشعري، ثم ينتقل إلى دراسة شعره من الناحية المعنوية والإنسانية، فيتعرض لدراسة الأغراض والقضايا المعنوية في شعر الشاعر.

تلكم كانت باختصار جملة الدراسات السابقة التي تحدثت عن الشاعر مالك بن المرحل، ضممت ما جاء فيها إلى كثير من المعلومات التي جمعتها، والتي ساعدتني في إتمام هذا البحث.

فمن هو إذن مالك بن المرحل؟ وما هي العوامل الذاتية والموضوعية التي ساهمت في تكوينه الثقافي ونضجه الشعري؟

حياة مالك بن المرحل:

١ ـ مولد الشاعر ونشأته ووفاته:

[من الرجز]

يا سائلي عن مولدي كي أذكره ... ولدتُ يوم سبعة وعشرة
من المحرم افتتاح أربع ... من بعد ستمائة مفسرة

ولد ابن المرحل في مرحلة زمنية عصيبة، طغت فيها الفتن والمشاكسات، وهي فترة انسحاب الموحدين وتسليمهم مقاليد الحكم لدولة المرينيين، وليس يهمنا هنا الحديث عن عوامل انهيار هذه الدولة وبروز الأخرى بقدر ما يهمنا تبيان الأوضاع والظروف التي ولد فيها ابن المرحل. وتُجمع المصادر على أن ولادته كانت سنة ٦٠٤هـ بمالقة، إلا أننا نجد الأستاذين ابن تاويت والعفيفي ذهبا إلى أن مسقط رأسه كان بسبتة[٣]، ولقد عثرنا ونحن نبحث بشأن مقر ولادته على نسخة خطية من كتاب «سلوة الأنفاس»[٤] لمؤلفه جعفر بن إدريس الكتاني، ما نصه: «وهو رضي الله عنه سبتي الدار، مالقي النجار، مولده بمالقة في ١٧ محرم فاتح عام ٦٠٤هـ»[٥]، فهذا المخطوط إذن يشكل دليلاً يعتمد عليه الباحث في إصدار هذا الحكم. ونحن بعد الاقتناع بأن ولادته كانت بمالقة لا ندري متى غادر هذه المدينة وكم قضى فيها من عمره، سكتت كل المصادر عن هذا، ولم تذكر السبب الذي جعله يغادر مسقط رأسه، ويتنقل بين سبتة وفاس المغربيتين. وعلى كل حال فابن المرحل هذا، وكما هو معروف عند معاصريه أو عند من

---

(١) العدد من ٤٥ إلى ٥١ سنة ١٣٥٤هـ.
(٢) الأعداد من ١ إلى ٣ ومن ٦ إلى ٧ سنوات ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤.
(٣) الأدب المغربي: محمد بن تاويت ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٦٠، ص٢٢.
(٤) م.م ص٩٩.
(٥) م.م ص٩٩.

wadod.org

ترجموا له، هو أبو الحكم مالك بن عبد الرحمان بن علي بن المرحل، ولقبه أبو المجد، نشأ في صميم البيئة المغربية، وهي بيئة دينية خالصة امتازت بروحانية وصدق عقيدة، فشبَّ متشبعاً بروح الإسلام وبتعاليمه السمحة وشاب عليها. ومن يتصفح آثاره جمعيها يقف على روحانية صافية وأحاسيس فياضة وإخلاص عميق لكتاب الله وسنة رسوله. ولقد كان عصر الدولة المرينية التي ولد الشاعر في زمانها وعاش في ربوعها وأكنافها واتصل بكثير من رجالاتها. . من أزهى عصور المغرب الثقافية وأروعها علماً ورقياً، وكانت مدينة سبتة التي قضى الشاعر فيها معظم فترات حياته، من أهم المراكز الثقافية في المغرب، وذلك لموقعها الجغرافي الذي جعل منها صلة وصل بين الأندلس والمغرب، وبما توفر فيها من مكتبات وخزانات، وبما كانت تزخر به من علماء وفقهاء وأدباء وشعراء، ويكفيها شرفاً ورفعة أنها احتضنت بين مراتعها الكثير من الأعلام والشخصيات غاية في العلم والمعرفة والعرفان، كالعالم والأديب أبي الفضل القاضي عياض وغيره من الكتّاب والشعراء الذين تفتق نبوغهم في أنديتها.

فلا عجب إذن أن يتأثر ابن المرحل بهذه البيئة التي ترعرع فيها، ولا غرابة أن ينشأ نشأة إسلامية متينة، خصوصاً إذا علمنا بأن مذهب الإمام مالك والأشعرية كانا المذهبين السائدين في زمنه وبسبتة على الخصوص.

ولقد عمَّر الشاعر خمساً وتسعين سنة لم ينقطع خلالها عن العلم، ونظم الجيّد من الأشعار. ولم تفتر ملكته عن قول الشعر حتى آخر يوم من حياته، حيث أمر أن تكتب على قبره الأبيات الأربعة التالية: [من مجزوء الخفيف]

زُر غريباً بمغرب ... نازحاً ما له ولي
تركوه موسَّداً ... بين صخر وجندلِ
ولتقل عند قبره ... بلسان التَّذلُّل
رحم الله عبده ... مالك بن المرحّل[1]

وكان ذلك في اليوم السابع عشر من رجب الفرد عام ٦٩٩هـ. جاء في السلوة ما نصه: «فنفذت وصيته وكتبت هذه الأبيات في مربعة وجُعلت على قبره، ثم زالت بعد ذلك، أزالتها يد النوائب، والبقاء لله وحده. ويقال إن ضريحه من جملة ما قطع عن هذا الخارج بالسور الجديد المحديث عن يمين خارج هذا الباب، وصار من جملة داخل المدينة إلى ناحية المحل المعروف الآن بزريبة الخشب، والله أعلم»[2].

٢ ـ ثقافة الشاعر وتكوينه:

لم تسهب المصادر التاريخية كعادتها في الحديث عن ثقافة الشاعر وتكوينه، ولم تفصل

(١) جذوة الاقتباس، م.م ص٣٣٣.
(٢) السلوة. م.م ص٩٩.

wadod.org

القول في المناهج التي اتبعها في دراسته، باستثناء ما جاء في بعضها، وفي إشارات عابرة كنفح الطيب وأزهار الرياض والإحاطة[١].

إلا أننا يمكن أن نستنتج من تكوين ابن المرحل فكرة عن هذه الثقافة والطرق التي اتبعها في تمدرسه وتعلمه، لقد كانت هناك تقاليد ونظم أملتها الظروف الدينية والاجتماعية حتى أصبحت من القيم والمثل العليا التي يجب أن تصان وتحترم. منها أن يبدأ الطالب بحفظ القرآن الكريم واستظهاره. وابن المرحل كما جاء في معظم المصادر التي ترجمت له قد حفظ القرآن وأتقن قراءاته السبع[٢]، ثم انتقل إلى دراسة اللغة العربية وما يتصل بها من علوم، كالفقه والنحو والصرف والبلاغة والعروض يلتهمها التهاماً، معتمداً في ذلك على الحفظ والاستظهار، فتقوت بذلك ملكته اللغوية، واكتسب روح العربية لغةً وبياناً وعروضاً وحفظاً واضطلاعاً.

وإذا علمنا بأن ابن المرحل قد تولى القضاء بالأندلس وخاصة بغرناطة، كما اتفقت عليه جميع المصادر تأكدنا من مدى تضلعه في الفقه وفي الشريعة الإسلامية، مع العلم بأن القاضي في ذلك العصر كان يجب عليه أن يكون مُلمّاً باللغة العربية وقواعدها من جهة، وضليعاً في أصول الفقه وأصول الدين وغيرها من العلوم التي لا مناص للقاضي منها، من ناحية أخرى.

ونتيجة لكل هذا أصبح مالك بن المرحل كاتب وشارع البلاط المريني، وما أدراك ما البلاط المريني في تشجيع العلم والعلماء والشعر والشعراء، حيث كان يعج برجال العلم والأدب وشيوخ الفقه والتصوف. وتجمع كتب التاريخ والتراجم على اختلافها، أنه كان حسن الكتابة، جميل الخط، قد أظهره انتخابه لكتابة دولة ابن الأحمر بالعدوة الأندلسية، والسلطان المريني الذي استكتبه كما جاء في الإحاطة، الشيء الذي جعله في مصاف من زاولوا الكتابة بعده في بلاط المرينيين كابن الخطيب وابن خلدون.

ولم يكن خطه الحسن وأسلوبه الواضح السبب الوحيد الذي بوأه تلك المكانة الراقية، وإنما كذلك لما توفر فيه من خصال فاضلة: «فقد كان نافذ الذهن، شديد الإدراك، قوي العارضة والتبريز في ميدان اللّوذعية وحرارة النادرة وحلاوة الدعابة»[٣]، وقد غلب عليه النظم والشعر، فكان إنتاجه غزيراً، حتى كاد أن لا يتكلم إلا بالشعر، وسوف يأتي الحديث عنه في موضعه إن شاء الله.

٣ ـ شيوخه وتلامذته:

من البديهي أن يكون لصاحبنا شيوخ أو أساتذة بالمفهوم المتداول اليوم، حيث كانت لهؤلاء اليد الطولى في توجيهه الأدبي، بل مارسوا تأثيراً بيناً وجلياً للغاية في تكوينه وثقافته

(١) نفح الطيب: المقري التلمساني، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج٤ ص١٤٥. أزهار الرياض، م.م. ج٢ ص٢٩ ـ ٢٦٣. الإحاطة، م.م مج٣ ص٣٠٣.

(٢) غاية النهاية، م.م ج٢ ص٣٦.

(٣) الإحاطة. م.م مج٣ ص٣٠٤.

wadod.org

العلمية والفنية. وقد اختلف شيوخه باختلاف المدن والأماكن التي نزل بها. فأما في مالقة فقد أخذ شاعرنا عن كثير من الفقهاء والمؤدبين كأبي جعفر بن علي الفحام الأنصاري[١] الذي رحل إلى شرق الأندلس، وتلا هناك بالسبع وكان تقياً ورعاً مفضلاً للعزلة[٢]. وقرأ عن أبي عبد الله الأستجي الأديب[٣]، وأبي عمرو بن سالم، وابن صالح الفهرواني المالقي الأديب المقيد الضابط، أحد نحاة مالقة المشهورين، ثم أبي عبد الله بن عسكر تلميذ أبي علي الرندي النجيب الذي أثنى عليه، وأشار بأن يخلفه في موضعه لتصدر الإقراء[٤]، وجالس أبا النعيم رضوان بن خالد وهو أحد شعراء عصره المشهورين ومن أظرف الأدباء زيّاً ومجالسة.

أما في إشبيلية، فقد لقي بها ابن المرحل أبا الحسن بن الدباغ[٥] وأبا القاسم بن بقي الفقيه والمحدث، والقاضي النزيه، حيث أجاز له[٦] بالإضافة إلى أبي علي الشلوبين الذي أخذ عنه وهو الإمام النحوي المشهور بالأندلس[٧].

أما عن شيوخه بالمغرب فهم أبو زيد البرنوصي وعبد الرحيم بن محمد اليزناسي[٨] العالم الصالح الفاضل التقي، أحد العلماء الذين لهم الفضل الكبير في تكوين ابن المرحل العلمي والفقهي.. وسواهم كثير.

هذا ولم يكن محيط ابن المرحل الفكري والثقافي يتكون من أشياخه فقط، وإنما كان له تلامذة وتابعون مثله، مثل أي شيخ امتلك ناحية اللغة والأدب وأتقن علوم الدين وخبرها، وقد كان لتلامذته وزنهم الثقيل وشأنهم الكبير في عصره، فقد عُرف من تلامذته أحمد بن إبراهيم بن الزبير العاصمي الغرناطي ويُكنى أبا جعفر[٩]، وقد روى عن شاعرنا ورحل إليه فتصدى للإقراء وإسماع الحديث وتعليم العربية وتدريس الفقه، وكان من أهل التجويد والإتقان، عارفاً بالقراءات، انتقل إلى سبتة للاتصال بشيخنا أبي الحكم لما سمع عن علمه الواسع الغزير.

ويضيف المترجمون لتلامذته أبا حيان النحوي الأندلسي، وقد أجاز له ابن المرحل، يقول المقري: «ومن كتب عنه من مشاهير الأدباء أبو الحكم مالك ابن المرحل المالقي»[١٠]. ثم

---

(١) الإحاطة مج٣ ص٣٠٥ ودرة الحجال، م م ص٨٩٧.
(٢) انظر ترجمته في الذيل والتكملة، م.م ج١ ص٣٢٢.
(٣) الإحاطة، م.م مج٣ ص٣٠٥.
(٤) جذوة الاقتباس، م.م ص٣٢٧.
(٥) الإحاطة، م.م مج٣ ص٣٠٥.
(٦) الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة: لأبي الحسن علي بن سعيد، تح إبراهيم الأبياري ـ دار المعارف ـ القاهرة، ط٣، ١٩٧٧، ص٣٢.
(٧) السلوة. م.م ص٩٩، وغاية النهاية، م.م ج٢ ص٣٦.
(٨) جذوة الاقتباس، م.م ص٢٢٣.
(٩) الإحاطة، م.م مج٣ ص٣٠٥ وجذوة الاقتباس، م.م ص٣٢٧.
(١٠) النفح، م.م ج٣ ص٣٠٥.

wadod.org

القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك المراكشي الذي أخذ عن ابن المرحل بسبتة، وقد برع في الكتابة الأدبية وقرض الشعر، وهو صاحب الكتاب المشهور «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصِّلة» ذكر ابن المرحل في مؤلفه ضمن شيوخه، كما أخذ عليه مآخذ تخص تقنيات عروضية في قصيدتين أوردهما له[١]. ثم أبو جعفر بن مالك المعارفي من أهل غرناطة، تولى القضاء بألمرية ووادياش ومالقة، يقول عنه في درة الحجال «أجاز له مالك بن المرحل»[٢]. وكذلك يعتبر أبو عبد الله بن جعفر الأسلمي من تلامذته النجباء، يقول عنه ابن القاضي: أجاز له جماعة منهم مالك بن المرحل[٣]، ثم القاضي أبو إسحاق إبراهيم الغافقي الإشبيلي، الذي روى عن جماعة من الأدباء منهم الأديب أبو الحكم مالك بن المرحل..

هؤلاء بعض شيوخ ابن المرحل وتلامذته، أسماء لامعة، وجلة من فحول هذا العصر، كانت وستبقى دائماً رمزاً لسعة العلم وغزارة المعرفة وعمق الإحساس بالمسؤولية، مسؤولية القيام بالواجب العلمي والتربوي.

٤ ـ علاقاته الأدبية:

هذا ولم تكن بيئة ابن المرحل الثقافية والفكرية تتمثل في شيوخه وتلامذته فقط، وإنما كانت تتكون من النقّاد والكتّاب والشعراء والنحويين الذين عاصروا الشاعر فتأثر بهم وأثّر فيهم، ودليلنا على ذلك هو أنه قد وقعت بين ابن المرحل ومعاصره ابن أبي الربيع النحوي مناقشة حادة بشأن مسألة «كان ماذا» هل تقع حشواً كما استعملها مالك أم لا؟ وكان ابن أبي الربيع هذا قد سمع قول مالك في إحدى قصائده: [من الكامل]

وإذا عشقت يكون ماذا هل له ... دين عليَّ فيعتدي ويروح

فلحنه وقال: لا يقال كان ماذا. فاحتج عليه مالك ببعض أشعار المولدين وغيرها، إلا أن ابن أبي الربيع أنكر عليه ذلك وقال: [من المديد]

كان ماذا ليتها عدم ... جنبوها قربهم ندم

ليتني يا مال لم أرها ... إنها كالنار تضطرم

(مال: ترخيم مالك).

وردّ عليه مالك بن المرحل بقوله: [من مجزوء الخفيف]

عاب قوم كان ماذا ... ليت شعري لم هذا؟

وإن[٤] عابوه جهلا ... دون علم كان ماذا؟

وألّف كل منهما في المسألة. وكان الذي ألّف ابن المرحل كتابه «الرمي بالحصى والغرب

---

(١) الذيل والتكملة، م.م ١/ ٣٣١ ـ ٣٣٥.

(٢) درة الحجال، م.م رقم ١٦٦ ص٦٩ ـ ٧٠.

(٣) المصدر نفسه رقم ٥٤ ص١٨٨.

(٤) وإن: تخلّ بالوزن، والصواب: وإذا.

wadod.org

بالعصا» في ثلاثة أجزاء[١].

ونظير هذه الخصومة ما جرى بين شاعرنا وبين أبي علي بن رشيق، هذا الأخير نظم قصيدة مطلعها: [من الكامل]

لكلاب سبتة في النباح مدارك وأشدها عند التهارش مالك

وقد اشتملت القصيدة كلها على التعريض والتحريض والتهم لشاعرنا..

ولم يقف ابن المرحل مكتوف اليدين أمام هذا الهجاء اللاذع، وإنما أجابه بقوله:

[من المتقارب]

كلاب المزابل آذيننـي بأبوالهن على باب داري
وقد كنت أوجعها بالعصا ولكن عوت من وراء الجدار[٢]

ولم تكن علاقات ابن المرحل بمعاصريه علاقات خصام وعداء فحسب، وإنما كانت له صداقات متينة وعلاقات حسنة مع مواطنيه من الأدباء والشعراء، مثل تلك العلاقة الوطيدة التي جمعته مع الأديبة الشاعرة سارة الحلبية التي نزلت بسبتة ومدحت رؤساءها وكتّابها وشعراءها..

ومما خاطبت به ابن المرحل قولها: [من مجزوء الكامل]

يا ذا العلا يا مالكي أنعم عليّ بمالك
العالم المتفنّن البحر المحيط السالك
يا نفس إن جاء الزما نُ بِهِ بلغت منالك
ولطالما قد نلت ما أملت من آمالك

فراجعها ابن المرحل بقوله:

يا ندرة الدنيا لقد حزتِ العلا بكمالك
جُمَعتْ لكِ الآداب حتّى أنهن كمالك
إن قايسوك بمالك ألفوك أملك مالك

فردت عليه برسالة نثرية بليغة وأجابها هو أيضاً بأبيات شعرية[٣].

وهكذا كان محيط ابن المرحل محيطاً ثقافياً زاهراً غنياً بالأحداث والتظاهرات الثقافية والفكرية، مما كان له أثره الفعال في صقل موهبة ابن المرحل الشعرية، إذ إننا نجد شاعرنا لم ينطق لسانه بالشعر في سن مبكرة، بل كان ذلك بعد أن نمت ملكته الشعرية واكتملت بفضل ثقافاته الواسعة ودراساته المتعمقة لأصول اللغة والنحو وعلم العروض..

٥ ـ آثاره وتواليفه:

إذا كانت حسنات الرجال والأعلام تتفاوت بمقدار ما تركوا من آثار، وبما خلفوه من

---

(١) انظر الهامش رقم ٤٣.
(٢) انظر بشأن هذه الخصومة نفح الطيب، م.م ج٤ ص١٤٥.
(٣) المصدر نفسه ص٤٥.

wadod.org

أعمال خالدة جليلة، فإن رجال الفكر الذين نذروا أنفسهم للكلمة، يكونون من العظماء الذين خلفوا للتاريخ تراثاً فكرياً ضخماً صوّروا فيه تجاربهم وأبحاثهم، وسجلوا فيه خلجات نفوسهم ونبضات قلوبهم وجديد أفكارهم، فنالوا بذلك المكانة المرموقة والذكر الطيب.

وابن المرحل كان من هؤلاء الذين اعتكفوا على التدوين والتحبير، فقد كانت مساهمته الفعالة ومشاركته الفعلية في ميدان الثقافة وحلبة المعرفة، عاملاً على إنهاض حركتها بمؤلفاته المتنوعة التي كادت تصل إلى العشرين مؤلفاً، ما بين آثار علمية وفنية وأدبية، ولكن ويا للأسف فقد لعبت بها الأيدي العابثة، وضاع معظمها ولم يبق منها إلا النزر القليل.

فأما آثار الرجل العلمية فقد حددتها المصادر فيما يأتي:

ـ أرجوزة سماها «سلك المنخل لمالك بن المرحل» نظم فيها منخل أبي القاسم بن المغربي.

ـ نظم غريب القرآن لابن عزيز، ذكره ابن القاضي في «درة الحجال».

ـ نظم اختصار إصلاح المنطق لابن عربي، ذكره ابن القاضي كذلك.

ـ كتاب الفصيح وشرحه، وللأستاذ محمد الفاسي نسخة منه فيها بتر في أولها ووسطها.

ـ كتاب الحلي وترتيب كتاب الأمثال لأبي عبيد على حروف المعجم، ذكره صاحب الجذوة.

ـ كتاب الرمي بالحصى والضرب بالعصا في مسألة كان ماذا، جاء في نفح الطيب وغيره.

ـ شرح أرجوزة في العروض، ذكره ابن القاضي في «درة الحجال».

ـ قصيدة في الفرائض المسماة «الواضحة»، وقصيدة مسماة «اللؤلؤ والمرجان»، ذكرهما صاحب الجذوة.

ـ أرجوزة في النحو، توجد منها نسخة بالخزانة العامة بالرباط في ٨٨ صفحة.

ـ التبيين والتيسير في نظم كتاب التبصير، عارض بها الشاطبية وزناً وقافية، ذكرها أيضاً ابن القاضي في درة الحجال.

لكن أكثر هذه الكتب والمصنفات في عداد الضائع.

أما شعره «فالموجود منه بين الناس فكثير»[1]، والذي دوّن منه أنواع:

ـ ديوانه الجامع المسمى بالجوالات أي المختارات، ومنه: أرجوزة في مدح النبي «صلعم» وسماها «الوسيلة الكبرى» رتبها على حروف المعجم، والتزم افتتاح أبياتها بحروف الروي، على أن يحمل لكل منها عشرين بيتاً، وهي مخطوطة وموجودة بالخزانة العامة بالرباط ٨٩ ص٤٧.

ـ المعشرات النبوية على حروف المعجم، يضم كل حرف منها بعده حرفين زيادة على النمط السابق، وتوجد منها حسبما ذكر الأستاذ العلامة عبد الله كنون نسختان بالإسكوريال

(١) برنامج الوادياشي، م.م ص١٤٠.

wadod.org

إ ـ ثان : ٣٩٨ .

ـ العشريات الزهدية وهي على نمط ما تقدم . ثم ديوان «دوبيت» صغير ، والذوبيت كلمة مركبة من «ذي» الفارسية بمعنى اثنان وبيت بالعربية ، وهذا الديوان يوجد بالإسكوريال أيضاً ثان ٢٨٨ رقم ٥٠٤ .

ـ «الصدور والمطالع» وقد ضاع أيضاً .

ذلك ما وقفنا عليه من تواليف الرجل ومؤلفاته العلمية والفنية ذات «الأغراض النبيلة والمقاصد الأدبية»[١] ، وقد خلّف لنا بذلك ثروة أدبية نفسية جديرة بالبحث والتهييء للنشر ، فنحيي بذلك ذكر رجل من رجالاتنا ومشاهير شعرائنا ، عاش حياته وأفنى عمره في خدمة لغة القرآن .

تلكم كانت إلمامة عجلى ونظرة خاطفة على حياة ابن المرحل الرجل ، الفقيه والأديب الشاعر كما صورتها لنا وثائق التاريخ ، وكما كشف لنا عن بعض خفاياها شيوخه وتلامذته وآثاره . أما ابن المرحل الشاعر فهو مما أتمنى أن يكون موضوعاً للحلقة الثانية من هذا البحث .

ـ يتبع ـ

(١) الإحاطة ، م.م مج٣ ص٣٠٧ .